

الإمام الزاهد والتابعي الورع أبو سعيد الحسن بن الحسن البصري

الدكتور أحمد عيسوي
أستاذ بجامعة باتنة

تمهيد:

من دائرة الارتكاس الأرعن للماضوية بحسب زعمها الحداثي، وينطلق نحو التقدم والانطلاق.

مطلقة في الوقت نفسه العنان لخيال كتابها ومفكرها وأدبائها ليصوروا وقائع وأحداث حياتها، بهدف شغل عقل المسلم عن استلهاهم مقومات النجاح من التراث، وأخذ الأنموذج الصحيح من رجال القرون الأربعة الأولى، ومن منهج رجال الإصلاح الإسلامي عبر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة.

والمطلع على بعض مصادر التاريخ الإسلامي يجد نفسه أمام حشد عظيم من رجال الإصلاح والدعوة الدينية، ممن تعد حياتهم مدرسة متكاملة في النجاح

غمرت وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية الحديثة بسيولها الثقافية والفكرية والأدبية والعلمية والمعرفية المادية العقل المسلم، وطبعت بعمق جوانب كثيرة من تفكيره بقيمها ومثلها، واجتاحت بقوة فضاءات روحية ووجدانية عديدة من ضميره الداهل، بغرض بته عن أصوله العربية الإسلامية.

مقدمة في عصر التيه والضياع العولي نماذج من شخصيات صنعت النجاح والتفوق المادي، كشخصيات مثالية ناجحة يجب على عقل المسلم أن يركن إليها، ويأنس بتجربتها، حتى يخرج

الإبراهيمي والعربي التبسي والطيب العقبي الجزائري ومحمد الطاهر بن عاشور وعبد الكريم الخطابي وعز الدين القسام وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال وأبو الأعلى المودودي وحسن البنا وسيد قطب ومحمد الغزالي وابن باز والعثيمين .. وغيرهم من رجال الإصلاح الإسلامي إلى يوم الناس هذا.

والشخصية المتفوقة التي جمعت رئاسة العلم والزهد والورع والقلم.. في عصر التابعين من القرن الأول للهجرة الإمام الورع والفقيه الزاهد الشيخ المحدث (أبو سعيد الحسن بن الحسن البصري) الذي يعد للأجيال المسلمة مدرسة متكاملة، قدمت لنا منهجاً شاملاً في الدعوة للإسلام وخدمة الدين.

أصله ومولده ونشأته وتعلمه :

أصله ومولده :

هو الإمام أبو سعيد الحسن بن البصري، المولود بالمدينة المنورة سنة 21 هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد حنكه عمر، ودعاه بدعاء النبي

والتفوق الديني، والفوز الأخروي، الذي يعد أصل الأصول في حياة الفرد المسلم. ومن بين هؤلاء الرجال الأعلام بعد جيل الصحابة من التابعين أمثال: أويس القرني، والحسن البصري، والزهري، وعامر الشعبي وسعيد بن جبير، وتابعي التابعين من أمثال: الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك، وتابعيهم بإحسان من رجال القرن الأربعة الأولى أمثال: شقيق الباخي، ومعروف الكرخي، وإبراهيم بن أدهم، وحاتم الأصم، وأبو سليمان الدراني ويوسف بن أسباط ورجال القرون الإسلامية أمثال: العز بن عبد السلام، أبو حامد الغزالي وعبد الرحمن بن الجوزي، وأحمد بن تيمية، وابن دقيق العيد وغيرهم، ممن جمعت مصادر التاريخ الإسلامي ترجمتهم وحياتهم.

ومن رجال القرون الإسلامية المتأخرة من أمثال: الإمام الشوكاني والصنعاني ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد بن علي السنوسي الجزائري وعبد الحميد بن باديس ومحمد البشير

لَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
(اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ،
وقد ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر رضي الله عنه ،
إذ استشهد عمر رضي الله عنه شهر ذي
الحجة الحرام سنة 23 هـ .⁽¹⁾

كان والده مولى الصحابي زيد بن
ثابت الأنصاري رضي الله عنه وأمه (خيرة) كانت
مولاة لأم المؤمنين (أم سلمة) رضي
الله عنها، وهما من سبي ميسان جنوب
العراق، وقد تزوج أبوه - بعد العتق -
من أمه خيرة في خلافة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه ، وله من الاخوة اثنان سعيد وعمار ،
فأما سعيد فقد اشتغل بالحديث ونبغ فيه ،
وأما عمار فكان من اليكائين .⁽²⁾

نشأته وتعلمه :

كانت أمه منقطعة لخدمة أم
المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وكان
يتفق أن ترسلها مرارا في بعض شؤونها،
فبكي الحسن، فتحن عليه أم سلمة
رضي الله عنها فتعطيه ثديها فدر عليه لبن
النبوة العديد من المرات فترويه، وقد
ناهزت السبعين، وهكذا يرضع الحسن

لبن أم المؤمنين رضي الله عنها. ثم كانت
كثيرا ما تخرجه للصحابة ليسكتوه،
وكثيرا ما كان يحمله عمر رضي الله عنه .
(3)

وكانت نشأته بالمدينة المنورة، ثم
بوادي القرى، ثم بالبصرة، وهي - يومها -
حواضر العلم والفكر واللغة والأدب
والفقه والسيرة والحديث والقراءة.⁽⁴⁾
وقد سئل الحسن : متى عهدك بالمدينة يا
أبا سعيد؟ قال : ليالي صفين، قال : متى
احتلمت ؟ قال : عاما بعد صفين . فقد
كان عمره يوم مقتل الخليفة عثمان بن
عفان رضي الله عنه ⁽¹⁴⁾ أربعة عشر عاما، وقد رأى
بالمدينة الجمع الغفير من صحابة رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهم فيهم : أبو هريرة،
وأبو ذر الغفاري، وسمرة بن جندب،
وعثمان بن عفان، وعبد الله بن عباس،
وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو،
وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .⁽⁵⁾

وما يمكن ملاحظته على نشأته
وتربيته والوسط الإيماني المتميز الذي فتح
عيناه فيه، أنه تربى في بيت النبوة، ورضع

يشارك في الفتنة، بل كان يقتدي بالعديد من الصحابة المحايدين أمثال: (عبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعد بن أبي وقاص). كما أنه لم يشتغل بالدرهم ولا بالدينار، بل عرف عنه انقطاعه للعلم، ولصحبة صحابة رسول الله ﷺ في السلم والحرب، والحل والترحال، فقد صحبهم في غزو وسط آسيا: (كابل والأندوغان وزابلستان)، وبقي في الغزو ثلاث سنين مع الصحابي سمرة بن جندب رضي الله عنه.

كما أنه لم يؤثر عنه اشتغاله مع الأمراء والولاة، إلا الكتابة للربيع بن زياد والي خراسان من قبل عبد الله بن عامر عامل معاوية على خراسان. كما عمل قاضياً للبصرة من قبل عدي بن أرطاة، ثم لم يلبث أن استعفى لأنه اشتكى علة في جسده، ليفلت من جور السلاطين.⁽⁸⁾

وقد عرف الحسن بالتقوى والعبادة والورع وكثرة البكاء، فلم يضحك ثلاثين سنة، لأن الضحك غفلة من القلب عن الله تعالى، فقد أثر عنه أنه

من لبنه، وجال في كنف كبار الصحابة، فقد كان صبياً جميل المحيا يحبه جل الصحابة، وإذا رآه نادوه، فيأتيهم فيستبشرون بقدومه عليهم لاسيما إن حملته إليهم أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وكان يدخل مجالس الصحابة رضوان الله عليهم ولا يستنكرون دخوله عليهم، وقلما اجتمع وسط ومحضن تربوي وتهياً لمثل الحسن.⁽⁶⁾

أقبل الحسن على حفظ القرآن الكريم كسائر أبناء عصره، فآتم حفظه ورسمه وتأويله وهو ابن اثني عشرة عاماً، وكان لا ينتقل من سورة لأخرى حتى يعلم تأويلها وتفسيرها وأحكامها وفيما أنزلت وفيمن نزلت وسبب نزولها. فقد أقام بالمدينة المنورة إلى أن بلغ العشرين من العمر، وكانت المدينة مهد النبوة، ثم صارت عاصمة الخلافة، فخالط فيها الجمع الغفير من الصحابة رضوان الله عنهم.⁽⁷⁾

وقد حضر الفتنة وهو بدار الخليفة عثمان وعمره خمسة عشر عاماً، ولم

قال لأحدهم عندما سأله: (نضحك، ولعل الله تعالى اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً).⁽⁹⁾

على منهج الرسول والصحابة:

عاصر الحسن الفتنة التي عصفت بوحدة المسلمين، وأسف شديد الأسف لما حدث بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وتأثر لتلك المشاهدات الدامية التي أعقبت مقتل الخليفين عثمان وعلي وابنيه الحسن والحسين وثورات الخوارج والصراع مع ابن الزبير.⁽¹⁰⁾ فصار كثير الهم والحزن والبكاء، كثير الهموم والأسى، يكثر من العبادات والطاعات، مستمسكا بمنهج الصحابة الكرام في الزهد والتعبد والورع، ولذلك وصفه الصحابي الجليل أبو بردة رضي الله عنه بقوله: (ما رأيت رجلاً قط لم يصحب النبي - صلى الله عليه وسلم - أشبه بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هذا الشيخ)⁽¹¹⁾.

وهي الشهادة نفسها التي شهداها له بها الصحابي الجليل أبو خيثمة رضي

الله عنه⁽¹²⁾.

كان من الجائز والمحتمل أن تنعكس أحداث التاريخ الإسلامي الدامية على شخصية الحسن فتخلق منه فتى متأزماً متشنجاً، متناقضاً بين سمو التعاليم التي آمن بها، ورأها مجسدة في شخصيات الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وبين حالة الاقتتال وإهدار الدماء بين المسلمين في العصر الأموي، ولكن الله حمى الحسن وأمثال الحسن فكانوا منارات اهتداء ورشاد للأمم، حتى شهد له الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه وهو يقول: (عليكم مولانا الحسن فسألوه، فقالوا: يا أبا حمزة نسألك و تقول: سلوا مولانا الحسن، فقال: إنا سمعنا وسمع فحفظ ونسينا).⁽¹³⁾

وكان يقول في أدق وأخطر المسائل برأيه، فقد قال في الفتنة الكبرى: (.. رحم الله عثمان رضي الله عنه - ثلاثاً - ولعن قتله - ثلاثاً - ووالله لو لم نلعنهم للعنا، ثم يذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيقول:

مكرهين، لأن الدهاة أشاروا على ابن الأشعث بإخراجه وقالوا : (إن سرّك أن يقتلوا حولك، كما قتلوا حول جماعة عائشة فأخرج الحسن). (18)

وقد عاصر الإمام الحسن انتقال الخلافة الأموية من فرعها السفيناني إلى فرعها المرواني، وما أعقبه من توقف حركة الفتوح في الشرق والغرب، واجتراء ملك الروم على المسلمين وخضوعهم له، ودفعهم الجزية سنة 71هـ، فصرفتة عن الاشتغال بمتابعة الحكام السلاطين والثائرين، إلى الاشتغال بالتربية، فقد روى عنه تلميذه حمزة الأعمى قال : (ذهب بي أُمي إلى الحسن، فقالت: يا أبا سعيد: ابني هذا قد أحببت أن يلزمك فلعل الله ينفعه بك، فكنت أختلف إليه، وكنت أدخل عليه تارة داره - دون علمه - وهو يبكي، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه، فقلت له يوما: إنك تكثر البكاء، فقال: يا بني ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك؟ يا بني إن البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعت أن تكون عمرك باكيا فأفعل، لعله تعالى يرحمك). (19)

لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرف النصر، ويساعده الظفر حتى حكم، فلم تحكم؟ والحق معك. ألا تمضي قدما - لا أبالك - وأنت على الحق). (14)

وهو لا ينبغي برأيه هذا الفتنة، فقال عندما سئل عنها: (تلك دماء طهر الله منها أسيفنا، فلانطخ بها ألسنتنا). (15) وقيل له مرة بعد أن أشتد ظلم الحجاج ألا تخرج على الحجاج فتغير وجهه، وقال : (.. إن الله يغير بالتوبة ولا يغير بالسيف). (16)

وقالوا له يوم ثورة (ابن الأشعث) سنة 67هـ ما نقول في قتال هذا الطاغية - الحجاج - الذي سفك الدماء الحرام، واستحل الشهر الحرام، وانتهك حرمة البلد الحرام، فقال : (.. أرى ألا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أتم برادي عقوبة الله بأسيا فكم، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين). (17)

ولما أكرهه ابن الأشعث على الخروج معه، فخرج هو وأخوه سعيد

وكان الإمام الحسن يتمثل بهذين البيتين القيمين طيلة حياته، أولهما يرتجزه في صبح النهار، وثانيهما في آخره، تعبيرا منه عن هضمه لمضمون الحياة الدنيا والآخرة، وتحديدًا منه للخالدة الباقية منهما، وموقفه من الخالدة منهما، وهما قول الشاعر:

وما الدنيا بباقية لحي

ولا حي على الدنيا بباقي

يسر الفتى ما كان قدم من تقى

إذا عرف الداء الذي هو قاتله. (20)

الحسن البصري العالم الجريء:

عاش الحسن معلما ومربيا، ثابتا على الحق، الأمر الذي جلب له نقمة الولاة، وتضايق الحكام وحنقهم منه، فقد روي أن الحجاج دعا فقهاء البصرة والكوفة فدخلوا عليه، ثم دخل الحسن البصري، وكان آخر من دخل عليه، فقال الحجاج: مرحبا بأبي سعيد إلي إلي، ثم دعا بكرسي فوضع إلى جانب سريره، فقعده عليه، فجعل الحجاج يذاكرنا ويسائلنا، والحسن ساكت صامت عاض على إبهامه، فقال: يا أبا سعيد مالي أراك

ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول، قال: أخبرني برأيك في أبي تراب؟ قال: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كُنْتَ لَكِبْرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: ١٤٣ فعلي ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وختنه على ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين، وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سيقته له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقول إن كانت لعلي هبة فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا، فبسر وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغاضبا، فدخل بيتا خلفه وخرجنا، قال عامر الشعبي: فأخذت بيد الحسن، فقلت: أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك عني يا عامر، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، أتيت شيطانا

فضرب بها على منكب الحسن، ثم قال: (صدق الشيخ وبر، فعليكم بهذه المجالس، أشباهها فاتخذوها حلقا وعادة، فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ أن مجالس الذكر هي رياض الجنة ونعيمها، ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذا المجالس لمعرفتنا بفضلها).⁽²²⁾

ولم يكن الحسن صلبا مع الحجاج وحده، بل مع كل عمال بني أمية، يترفق بالتقي والزاهد منهم ويشدد بالدعي الأحمق المغرور منهم، فقد كتب إليه عمر بن عبد العزيز غداة توليه الخلافة مستنصحا في أمر الخلافة فقال: يا حسن إني قد ابتليت بهذا الأمر، فأنظروا لي أعوانا يعينوني عليه، فكتب إليه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونه، فأسْتَغْنِ بالله والسلام.⁽²³⁾

وعلى الرغم من تقوى وزهد وورع الخليفة الراشدي عمر بن عبد العزيز، إلا أن الإمام الحسن لم يكتف بورعه، بل كتب إليه ناصحا: (أما بعد ..

من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر، هلا اتقيت إن سئلت، أو سكت فسلمت، قال عامر الشعبي: يا أبا سعيد: قد قلتها وأنا أعلم ما فيها، قال الحسن: وذلك أعظم في الحجة عليك، وأشد في التبعة.⁽²¹⁾

وقد روى سعيد بن أبي مروان، قال: (كنت جالسا إلى جنب الحسن، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر- البغل الكبير- فدخل المسجد ببرذونه فجعل يلتفت في المسجد، فلم ير حلقه أحفل من حلقة الحسن، فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها، وتوجه نحو الحسن فلما رآه الحسن متوجها إليه تجافى له عن ناحية من مجلسه، قال سعيد: وتجافيت له أيضا عن ناحية من مجلسي، حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس الحجاج، فجاء الحجاج فجلس بيني وبينه، والحسن يتكلم بكلام لم يغيره، حتى انتهى إلى آخر كلامه، فلما فرغ الحسن من كلامه، وهو غير مكترث به، رفع الحجاج يده

أنفسهم العبر، ويرى المؤمنين فيهم المعبر،
اللهم أمته كما أمات سنتك). (25)

وقد لاحقه الحجاج طيلة السنين
التسع التي اختفى فيها وتوارى عن
الأنظار، فلما جاءه نبأ وفاته سجد لله
شكراً، وقال: (.. اللهم أمته فأذهب عنا
سنته، وقال: فإنه أانا أخيفش أعيمش
يمد يديه، قصير البنان، والله ما عرق فيها
غبار في سبيل الله، يرجل جمته، ويخطر
في مشيته، ويصعد المنبر فيهدر حتى
تفوته الصلاة، لا من الله يتقي، ولا من
الناس يستحي، فوجه الله تعالى، وتحت
مائة ألف أو يزيدون، ولا يقول له قائل:
الصلاة أيها الرجل، هيهات حال دون
ذلك السيف والسوط). (26)

وقد ذكروا له الكلمات الأخيرة
التي قبض عليها الحجاج قوله: (اللهم
أغفر لي فإنهم يزعمون أنك لا تفعل،
فقال: أقالها، قالوا: بلى، فقال: بالله إن
نحي لينجون بها). (27)

والمتمعن في مواقفه يتبين جانباً
من شخصيته الربانية المتميزة، فقد شكل

فإن الدنيا دار ظعن، وليست بدار إقامة،
وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة
إليها عقوبة، فأحذرهما يا أمير المؤمنين،
فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها،
لها في كل حين قتيل، نذل من أعزها،
ونفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من
لا يعرفه، وفيه حتفه، فكن فيها كالمداوي
جراحه، يحتمي قليلاً مخافة ما يكره
طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة
طول الداء، فأحذر هذه الدار الغدرة،
الختالة الخداعة..). (24)

وقد تشدد الحسن مع الحجاج
في شأن أهل بيت رسول الله ﷺ وقال
فيهم كلاماً أغضب الحجاج، فجعل
الحجاج يغضب وينكت الأرض، وخرج
من عنده وتوارى عنه تسع سنين إلى وفاة
الحجاج سنة 95هـ، وقال حين خرج من
عنده: (.. خرجت من عند أحويل قصير،
يطبطب شعيرات له، أخرج لي بنانا قصيرة
له، قل ما عرفت فيها الأعنة في سبيل الله،
أما والله إنهم وإن ركبوا البراذين، إن ذل
المعاصي لفي أعناقهم، أبى الله تعالى إلا
أن يذل من عصاه، ما زال الله يريهم في

(الخالق). (29)

الحسن سيد علماء عصره :

سأل الخليفة العباسي أبو العباس السفاح أبا بكر الهذلي فقال : بأي شيء بلغ حسنكم ما بلغ ؟ فقال : جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى سورة حتى يعرف تأويلها، وفيم أنزلت، ولم يقلب درهما في تجارة، ولا ولي سلطانا، ولا أمر بشيء حتى يفعله، ولا نهى عنه حتى يدعه. قال : فبهذا بلغ الشيخ ما بلغ. (30)

وأجمع علماء العصر العباسي في القرن الثاني على مكانة الحسن البصري، فقال فيه أبو عمرو ابن العلاء اللغوي والراوية المشهور : (ما رأيت أفصح من الحسن)، وقال فيه الأصمعي : (كان الحسن سيدا سمحا)، وقال فيه ابن سعد : (كان عالما جامعا رفيعا فقيها حجة مأمونا عابدا ناسكا، كثير العلم، فصيحاً جميلاً وسيماً، فقد جمع كل فن وعلم وزهد وورع وعبادة وفقه وحكمة وبيان، وكان أكثر كلامه حكمة وبلاغة

مرجعية لأهل العراق حين اشتد الخطب بعلمائهم، ونعى عليهم تدنيهم، فقال لهم : ..عجبا لكم يا أهل العراق ؟ تستحلون دم الحسين وتسألون عن دم البعوض). (28)

ولما ولي عمر بن هبيرة العراق وخراسان نيابة عن يزيد بن عبد الملك سنة 103 هـ دعا أهل المشورة كابن سيرين وعامر الشعبي والحسن البصري، وقال لهم : (إن الخليفة كتب إلي بأمر فأقلده ما تقلد من ذلك الأمر، فقال ابن سيرين وعامر الشعبي قولاً فيه بعض نقيّة، إلى أن أُنْتَهِيَ، فقال : ما تقول يا حسن، فقال الحسن : يا ابن هبيرة خف الله في يزيد، ولا تحف يزيداً في الله، فإن الله يمنعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله، ويوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرِكَ إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلاّ عملك، يا ابن هبيرة : إياك أن تعصي الله، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله تعالى وعباده، فلا تترك دين الله وعباده لهذا السلطان فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية

وقولا مأثورا). (31)

وسأل مالك بن دينار الحسن يوما فقال : (ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا، قال الحسن: موت القلب، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم، ويبقى عليه رسمه) (32).

وقال مغيرة واصفا مكانة الحسن العلمية بين علماء عصره: (أعلم الناس بالديات والقضاء وأيام الناس عامر الشعبي، وأعلمهم بالصلاة والزكاة والحلال والحرام إبراهيم النخعي، وأعلمهم بالمناسك عطاء بن ابي رباح، وأعلمهم بالتفسير سعيد بن جبير، وأعلمهم بالتجارة والصرف والمال ابن سيرين، والحسن سيدهم) (33).

وفي مكانته الفقهية يقول الأستاذ الدكتور رواس القلعجي: (.. التمس الإمام الحسن في فقهه منهج ابن مسعود وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ومنهجهما يهدف أولا وأخيرا من الحكم الشرعي، نلمس أهداف ومقاصد الشارع

الحكيم من الحكم، أكثر من تلمسه للألفاظ في النصوص، فغاياته من الحكم انصببت على المقاصد والأهداف والغايات التي قصدها الشارع الحكيم رحمة ورأفة وتيسيرا لحال الناس، فهو لم يكن يحتاج لنص مأثور عن الشارع الحكيم للحكم على كل تصرف من التصرفات بل كان يتلمس المقاصد والغايات والعلل من الحكم لتيسير أوضاع الناس، وتسيير الحياة والمعاش للخلق وفق ما يقصده الشارع الحكيم، فيقيس ما لا نص فيه على ما ورد فيه نص، وقد سأله أبو سلمة بن عبد الرحمن فقال يا حسن: ما نفتي به الناس، أشيء سمعته، أو شيء نقوله برأيك، قال الحسن: لا والله ما كل ما نفتي به سمعناه، ولكن رأينا خير لهم من رأيهم لأنفسهم.

وللإمام الحسن اجتهادات كثيرة انفرد بها بالرأي عمن سبقه وعاصره من الفقهاء ببعض منها:

1- انفرد بمنع وطء الأمة الكافرة- كتابية كانت أم غير كتابية- بملك اليمين حتى تسلم.

ومائة عن عمر يناهز تسعا وثمانين سنة، وكانت وفاته عشية الخميس، ودفن يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد خرج أهل البصرة عن بكرة أبيهم، حتى لم يبق أحد من الرجال بالبصرة واشتغل الناس بدفنه، ولما حان وقت صلاة العصر لم تقم الصلاة في المسجد الجامع، لأنه لم يكن في المدينة من يحضر الصلاة.⁽³⁷⁾ وهكذا يختم الإمام الحسن حياته الحافلة بالعلم والزهد والورع والخشية والجهاد، والوقوف في وجه الطغاة والجبابرة، إلى أن لاقى ربه راضيا مرضيا، فالسلام عليك يا رضيع لبن أم المؤمنين .. سلام يبقى في الخالدين حين قلت: (لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم).⁽³⁸⁾ وهكذا يصدق الشيخ ويبر حينما قال: (يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء دم الشهداء).⁽³⁹⁾

2- انفرد بعدم وجوب الإحداد على المعتدة، وأجاز لها أن تبني حيث شاءت، وأن تتزين، وتطيب وتلبس المعصفر.

3- انفرد بالقول بأن القتل لا يجب إلا بشهادة أربعة رجال، كالزنا سواء كان القتل قصاصا أم حدا.⁽³⁴⁾

وانفرد بالرأي في الكثير من المسائل، وخلاصة القول في فقه الإمام الحسن ما قاله عنه تلميذه أبو سلمة: (حفظت عن الحسن ثمانية آلاف مسألة).⁽³⁵⁾

وقد أحرق كتبه قبل وفاته إلا كتابا واحدا، وقال لابنه فيه: أرو عني ما في هذا الكتاب فقط، أو ما في هذه الصحيفة.⁽³⁶⁾

وفاته:

حج الإمام حجتين، أولهما في أول حياته، والثانية في أخرياتهما، وقد توفي رحمه الله بالبصرة شهر رجب عام عشرة

الهوامش

- 1- الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4، ص 563. وابن العماد الجنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج 1، ص 136. وابن الجوزي، صفة الصفوة، ج 3، ص 233.
- 2- ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج 3، ص 233، والحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4، ص 563.
- 3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 7، ص 156. والذهبي، ج 4، ص 564 و 565. وابن العماد، ج 1، ص 136. وابن كثير، البداية والنهاية، ج 9، ص 266.
- 4- أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 141.
- 5- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 157.
- 6- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 158، وابن كثير، البداية والنهاية، ج 9، ص 267. والذهبي، ج 4، ص 572.
- 7- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 158، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4، ص 234.
- 8- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 167. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 9، ص 267. والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4، ص 572.
- 9- ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج 3، ص 234. وابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 170.
- 10- عمر فروخ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص 118. وعبد المتعال الصعيدي، القضايا الكبرى في الإسلام، ص 195.
- 11- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 159.
- 12- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 160.
- 13- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 162.
- 14- أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 261، نقلا عن الكامل للمبرد، ج 1، ص 136.
- 15- المرجع نفسه، ص 298.

- 16- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 172.
- 17- المصدر نفسه، ج 163.
- 18- المصدر نفسه، ج 163.
- 19- المصدر نفسه، ج 172.
- 20- المصدر نفسه، ج 172.
- 21- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، ص 54.
- 22- المصدر نفسه، ج 4، ص 124.
- 23- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 174.
- 24- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، ص 377.
- 25- الطبري، التاريخ، ج 13، ص 249.
- 26- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 16، ص 339.
- 27- ابن سعد الطبقات، ج 7، ص 174.
- 28- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 2، ص 328.
- 29- ابن العماد، شذرات الذهب، ج 1، ص 137.
- 30- المصدر نفسه، ج 1، ص 137.
- 31- ابن سعد، الطبقات، ج 7، ص 157.
- 32- المصدر نفسه، ج 7، ص 157..177.
- 33- الطبري، التاريخ، ج 13، ص 2489.
- 34- محمد روااس القلعجي، موسوعة فقه الإمام الحسن، ج 1، ص 19..21.
- 35- المرجع نفسه، ج 1، ص 21 و 22.
- 36- المرجع نفسه، ج 1، ص 14.
- 37- المرجع نفسه، ج 1، ص 14 و 23.
- 38- إحياء علوم الدين، ج 1، ص 20.
- 39- المصدر نفسه، ج 1، ص 15.